الأمة.. ولبيك اللهم لبيك (*)

كثيرة هي تلك المناسبات التي تحمل من العمق والشمول ما يجعلها قادرة عند الاستجابة على أن تدفع بالمسلم إلى الصراط السوي من جديد، فتجعل - بعون الله - مسلم اليوم المضروب عليه بالأسداد، القاعد - إلا مَن رحم ربك - عن العمل والجهاد، صورةً صادقة عن مسلم الأمس الذي سلمت له العبودية الصادقة لمولاه، وكانت كلمته كلمة الفصل في كثير من بقاع المعمورة.

نعم.. كثيرة هي تلك المناسبات، ولكن حين نتحدث عن التعبير من أعماق النفس، وتحول الإنسان المسلم من حال إلى حال، بحيث يرقى عن أن يكون مجرد رقم يذكر عند الحسابات الإحصائية، ووسائل الإيضاح للعابثين.. لابد أن يكون في تصورنا تحقيق التكامل بين المناسبة وبين هذا الإنسان، بحيث يعزم المؤمن عزمته على الاستجابة، ويفتح عقله وقلبه، لما تحمله تلك المناسبة من الأصالة في علاقتها بدعوته ودينه، وارتباطها بتاريخه ومنطلقاته الحضارية.

أمسك القلم لأقول هذا الكلام - وقد مضى على المسلمين ردح من الزمن يشكو فيه المصلحون، ويضج الرواد بألسنتهم وأقلامهم، مذكرين داعين.. ولا يلقاك امرؤ أوتي مسكة من العقل، وفهم التاريخ وما لوقائعه من أبعاد ودلالات.. إلا ويحدثك حديث القلب إلى القلب، والمشاعر إلى المشاعر -:

(*) مجلة حضارة الإسلام: العدد الثامن والتاسع، السنة التاسعة عشرة، شوال وذو القعدة ١٣٩٨هـ وتشرين الأول وتشرين الثاني ١٩٧٨م.

بأن منجاة الأمة مما هي فيه تكمن في عودة واعية منهجية إلى الإسلام كما هو في منابعه الصافية النيرة. . تتصل بها الأمة، لا من خلال الأرقام الحسابية على الورق، ولكن من خلال الإيمان العميق، والفكر الدقيق، والأوبة الجادة؛ فأرقام مئات الملايين الستة أو السبعة وحدها ـ والأفئدة هواء ـ لم تصنع شيئاً، لأنها في أكثر الميادين لم تكن عنوان قلوب مؤمنة كما هو صريح الإيمان، ولا عزائم صادقة كما هو المبتغى في الصادقين، بل ولا وعي لتجربة التاريخ، ذلك الوعي الذي يجعل من صدق الانتماء إلى الأمة إنساناً قادراً على رصد النتائج، وربطها بالمقدمات. ونظرة واعية مجردة إلى خريطة العالم، ومسار الإنسان على أرضه يوم كانت للإسلام راية مرفوعة وكلمة مسموعة، وإليها اليوم ـ وواقع المسلمين في ديارهم وفكرهم كما يراه الرائي ويسمع به السامع ـ: لا تدع زيادة لمستزيد في هذا المضمار، ويا لله ما أقساها من مقارنة، ويا لله ما أشد مراراتها على نفس المسلم يوم يرى استنسار البغاث واستنواق الجمل، والمعاذ لله من فتنة الغفلة، ومساءة التدبير.

وإذا كان الأمر كذلك ـ وكل ذوي الرأي الصائب والمنطق السديد يقررون هذه الحقيقة ـ فأين مبتدأ الخيط الذي نريد مخلصين أن نمسكه؟

علماً بأن القلّة الواعية مكبَّل أحياؤها الناجون بشتى أنواع السلاسل والأغلال!!

إننا لا ندعو إلى أن يكون المسلم إنسان مناسبات ينفعل بها انفعالاً وقتياً وينتهي الأمر، معاذ الله أن يكون الأمر كذلك، ونحن ننعى على الذين

ينزلقون إلى هذا النظرة، ونشكو إلى الله واقعاً أليماً نجد فيه على هذه الشاكلة كثيرين ممن يتوهمون أنهم نابهون؛ انفعالٌ وقتي محدود لا يمتد أثره إلى فكر أو عمل، وعواطف تزجى، وهمهمات تكال بغير حساب، لا تكلف ثمناً، ولا تسلم إلى جهاد ولا عطاء.. وكفى الله المؤمنين القتال.. بل أكثر من ذلك: قد يقوم هذا اللون من الانفعال التلقائي بدور الامتصاص للمشاعر، وإدخال الوهم في روع العامة من المسلمين، بل وبعض الخاصة فيهم: أن ذلكم يكفي في الاستجابة، وأن الأمة بخير مادام يحصل كذا ويحتفل بكذا.. إلخ. يتقلب الليل والنهار، وتنقضي السنون والسنون.. والحال هي الحال، وكأن المناسبة المرتبطة بفريضة من فرائض الإسلام، أو ذكرى واقعة من وقائعه التاريخية المجيدة التي قامت على تحقيق كلمة الله في الأرض جهاداً وعطاء: أمر يحتفل به للترفيه ولملء الفراغ بعيداً عن المسؤولية، وحركة التغيير. ومن يدري؟ لعل وراء الأكمة ما وراءها في هذا الصنيع!!

وفي الوقت الذي نلتمس فيه الصواب من خلال هذا الذي نقول: هنالك عناصر ومقومات تفرض نفسها، لما أنها عميقة الصلة ـ كما أسلفت ـ بحقيقة الإسلام وأصالة الدعوة الإسلامية. ولعل من أهم تلك العناصر: أن يبلغ المسلم مرحلة الإحساس الصادق بقضايا الإسلام، شريعته وثقافته وتاريخه، وعند ذلك لا تمر المناسبة أو ذكرى الواقعة وكأنه جماد لا يتأثر ولا يريم، وإنما تمر به فتفعل فعلها في نفسه، وتأخذ حظها من قلبه وعقله ومشاعره، حتى كأنه يتبادل معها الأخذ والعطاء؛ فهي محطة من محطات الزمن ينطلق معها ليتابع الإسهام في صنع التاريخ والبناء.. والذي نشكوه اليوم ويبدو أنه

ظاهرة مَرَضيَّة في جسم العالم الإسلامي، ضعف هذا الحس، وما يبدو من غربة بين المناسبة أو ذكرى الواقعة، وبين المسلم. . وما هكذا يكون انفعال صانعي التاريخ. . وما هكذا كان صنيع أولئك الذين سقوا هذا البناء بدمائهم ومهجهم في المنشط والمكره وعلى كل حال من اليسر والعسر.

وفي خطوة على هذه الطريق. . نحن اليوم على أبواب ذي الحجة. . وفريضة الحج ـ وهي خامس ركن من أركان الإسلام ـ تطل تباشيرها على الوجود. . وضيوف الرحمن، منهم من هو هناك على أرض الوحي، وميدان وقائع الإسلام الأولى، وأرض معاركه وبطولاته. . ومنهم من يستعد للارتحال ليغمره الضياء كما غمر إخوانه من قبل.

إن فريضة الحج بما فيها من شعائر مباركات، وبما تحمل من معاني العبودية لله، وما يزينها من خلائق الجهاد، وأدب الأخوة الإسلامية، وبما هو منها بالقدر الأسمى من إحكام ارتباط المسلم بكل ما فيه تحقيق عبودية المخلوق للخالق جل وعلا، وحسن التوكل عليه، وإخلاص الوجهة له في كل حال، والتسليم لأمره في كل ما أراد، والبذل في سبيل مرضاته. . إن هذه الفريضة بما هي مثقلة به من المناسك قولاً وعملاً وسلوكاً، وبما يحيط بها ويرافقها من آداب كلها هداية ونور: تحمل قدراً غير يسير من مقومات التغيير في حياة الفرد والجماعة، ودفع الوفرة من أبناء الأمة إلى الجادة بعد ضياع، إذ إنها معسكر معرفة وأخذ بأحكام الشريعة، ودربة على كثير من أخلاق الجهاد والمجاهدين، وتزكية النفس لإحسان الصلة برب العالمين.

ولكن على تكرر الحركة بهذه الفريضة كل عام، هل كان المسلم على استجابة صادقة لتلك المقومات؟ وهل جاوزت القضية ساحة الانفعال الموقوت إلى ساحة الحياة في صلة الفرد بالله وصلته، وإلى حياة الجماعة في أن يزين وجودها العمل بما أنزل الله؟ وهل جاوز التأثر ـ عند أكثرنا ـ السطح إلى القاع؟

الواقع أننا نشكو عدم تجاوز السطح إلى القاع في كثير من قضايانا.. ونرضى بما هو بالقعود أشبه، حيث لا عطاء ولا جهاد، ونبتعد ونبتعد عما يجب أن يخالط الأنفس والقلوب، كي نظل بمنجاة من التكاليف التي تترتب على الانفعال المؤثر الصادق الذي يفترض أن يولد في حياة الفرد تفجراً حقيقياً ينعكس على حياة الجماعة وكيانها، ويحدث الوجود الإسلامي المرتجى.

فالمناسبة التي تحمل ما يذكر وما يثير، وتكشف بضيائها وإشراقها ما يكون في الواقع من ظلمات وانحراف، موجودة قائمة، ولكن العبرة في أن تكون القلوب مجلوة لحسن الاستقبال، والنفوس مهيأة للانفعال الصادق والتأثر الذي يعمل عمله في حياة المسلم، فيغيرها لتكون على خير نهج وأسلمه، بحيث يخرج من ضيق الجهالة والتقليد الأعمى للآخرين، واتباعَ سنن الظالمين والمشعوذين.. إلى سعة الإسلام في أفقه الرحب، وصراطه المستقيم. وقد تكون الرحلة طويلة إلى هذا الذي نريد! ولكن إرادة التغيير دائماً إلى ما هو الأفضل بدءاً من داخل النفس: لا بد أن تكون في الحسبان من أول الطريق، وتلك سنة الله التي رسخ معالمها القرآن الكريم، وكشفت عنها سنة المصطفى ـ عليه الصلاة والسلام ـ. وعلى نور هذا الصراط: يمكن اختصار المسافة بين الواقع، وبين ما يجب أن يكون.

أن يكون الحج صقالاً لحياة المسلم، وموسماً مباركاً يمده بكثير طيب من الخير في حياته. . أن يكون الحج في لقاء المسلمين على أرض الدعوة، صورة صادقة للمجتمع المسلم معرفة وسلوكاً وتطبيق شرعة. . يستعلن فيه المعنى الشامل العميق لقول الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ: [**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً**]. أن يكون الحج كذلك في حياة الفرد وفي حياة الجماعة. . أمل يتطلع له كل أولئك الذي يتقدمون لريادة الطريق صادقين أمناء. . وهو أمل يضعه أولئك الرواد في مقدمة الغايات التي يودون أن تتحقق وتأخذ أبعادها على صعيد الأمة. . وهم يعلمون حق العلم أن الوسيلة إلى ذلك إعداد صحيح للمسلم إيماناً، معرفة وسلوكاً، يرافق ذلك إبعاد المعوقات من طريقه، وتجنيبه عوامل التمزق التي يسببها ما يعترض سبيله من صنوف الأذى في الفكر وواقع الحياة، ففي الوقت الذي يبصّره العقلاء البررة من أبناء أمته بالإسلام، ويضعون يده على مكمن الداء، ليأخذ من معين الإسلام الدواء، تقوم في وجهه القولة المناقضة، والفكرة المناهضة؛ فإما أن يدع هذه لتلك، وإما أن تتغشاه ظلمة الحيرة والتمزق، فلا يدري إلى أين يسير، ولا كيف يتجه ليبلغ خاتمة المطاف، ناهيك عن معوقات التجهيل، وصوارف الترغيب والترهيب، وما أشدَّ الثانية وأعتاها!

إن نتائج تكون معقد الأمل في أن تنهض بالفرد من عثار البعد عن الله، والانفصام بين المعرفة والسلوك، وتعصف بالهوان الذي تعانيه الأمة اليوم: لا يمكن أن توصل إليها تلك المقدمات. . بل العكس هو الصحيح. وإذاً فالمطلوب توظيف كل الإمكانات المتاحة ـ وإن قلّت ـ والتي من شأنها سلامة الوسيلة إلى

تلك الغاية المرادة على الصورة المجدية مهما غلا الثمن، بحيث يحصل الانتعاش العام في تصور المسلم وسلوكه وعمق انفعاله وتأثره على الوجه المراد، فيؤدي - على سبيل المثال - الحج والعمرة، ويشد الرحال إلى مسجد الرسول - صلى الله عليه وسلم - وينعم بالسلام عليه وعلى أصحابه، ويسعد بالصلاة بين قبره ومنبره.. عارفاً بالأحكام، صادق اللهجة، خاشع القلب في التوجه إلى مولاه، يحكم سلوكه في المنشط والمكره، والرضى والغضب، هديُ النبي - عليه الصلاة والسلام - ثم من بعد ذلك تحمل تلك الشعائر إلى حياته آثارها، فترافق روحها كل مسلك يسلكه وكل قول أو عمل يأتيه.

وأنت تجد أن التجانس قائم بين الغاية والوسيلة في هذا المضمار، والله المستعان على تحقيق الغاية المرضية لله تبارك وتعالى بوسيلة من جنسها، لا تحيد بنا عن الجادة، ولا تميل بأجيالنا عن الصراط السوي.. كيما تخلص النتائج، ولا تكون تلك الأجيال نهباً مقسماً لأولئك الذي استحوذ عليهم الشيطان، فباتوا من سدنته أبالسة وشياطين، يتبخترون تحت المبهرج المعصفر من العناوين.. حتى إنهم لينخرون في كيان الأمة، ويقطعون أوصالها من هنا وهناك. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ترى.. هل يمتد بنا الزمان فتكتحل الأعين بفجر جديد؟.. نبصر فيه قوة وإشراق أن كل ما تهتف به الحناجر وترسمه الأقلام، لم يعد كلمات فارغة خاوية، ولكن أخذ مضموناته في الحياة الإسلامية من جديد. وهاهي ذي الألوف المؤلفة تنادي وتهتف في كل عام، على الجبال والآطام، وفي كل

واد ومنحنى: «لبيك اللهم لبيك». والمطلوب أن يؤذن فجر جديد، فتكون العبودية في حياتنا ـ على اتساع آفاق الحياة ـ لله وحده حقاً وصدقاً استجابة لدعوته، وعلماً وعملاً وجهاداً بالمال والنفس والوقت.. ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها.

مطلوب أن تكون «لبيك اللهم لبيك» هتافاً بالألسنة والحناجر، ودماً دافقاً في كل شأن من شؤوننا، بحيث يرى الله هذه الأمة وهي في كل حركة وكل سكنة تصدق هذا الهتاف الكريم والشعار المبارك.. عبودية لله، وخلعاً للأنداد والأضداد، وتحكيماً لكتابه وسنة نبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ في كل ما يشجر من أمر، والحكم على الأشخاص والأعمال من خلال ذلك وفي ضوء مقاييسه.

إن هذا التحول الذي يردُّ للأمة وجودها الإسلامي الحقيقي، ويعيد إليها أرضها وكرامتها في العالمين: مطلب عزيز غال ينشده ويسارع إلى الإسهام في تحقيقه أهل الإيمان الراسخ، والمجاهدون الصادقون الصابرون.. وإنه لأمانة غالية في أعناق كل القادرين على ذلك، ولسوف يندم القاعدون والمعوقون والمعطلون يوم لا ينفع الندم، خصوصاً أولئك الذين بيدهم من المقاليد ما يمكِّنهم من العمل لو أرادوا، ولكن الذين تغلب عليهم شقوتهم يفعلون غير ذلك والعياذ بالله. إن الأمة إذا صحت لما يراد لها وأخلص العاملون النية في إرادة التغيير: كان ذلك الخطوة الجادة على الطريق.. وإلا حقَّ على هذه الأمة قول الله تبارك وتعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ..**﴾.

الحقيقة والوجه الآخر(*)

لعل من نافلة القول: أن الذي عرفه أبناء هذه الحقبة الأخيرة من القرن الرابع عشر للهجرة عن الإسلام، إنما كان على الصعيد العملي من خلال واقع المسلمين في شتى بقاع العالم الإسلامي. ذلك العالم الذي يعاني وقد مضى على الانهدام الكبير الذي تمثل في القضاء على الخلافة ما يزيد على أربعة عقود.

وواقع المسلمين هذا ـ على وجه العموم ـ صورة جارحة من التخلُّف المذهل عن مواكبة الإسلام كما هو في حقيقته، إذ ترى من خلاله كيف تكون المخالفة بين الحقيقة والواقع، وكيف تظلم الحقيقة حين يحسب الناس أنها الوجه الآخر للواقع.

ذلك أن المرء إذا نظر في هذا الواقع من أكثر وجوهه، وقلب الأمور من هنا وهناك، ثم عاد التبصُّر في سنن الله الماضية، وإلى النصوص في كتاب الله وسنة رسوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وسيرته العطرة، وسلوك أصحابه الذين كانوا على نقاء المورد وسلامة العمل والجهاد، ثم تاريخ من كان على هديهم عبر القرون.. أصابه دوار الحيرة من هذه الفجوة العريضة المرعبة بين واقع يعيشه المسلمون، وحقيقة تنطق بها مصادر الإسلام وينابيع هداه.

(١) مجلة حضارة الإسلام: العدد العاشر، السنة التاسعة عشرة، ذو الحجة ١٣٩٨هـ، كانون الأول ١٩٧٨م.

فالإسلام في الوحي المكتوب، والإسلام في البناء الحضاري والتاريخي، والإسلام كما تجده في ثروة هذه الأمة على صعيد المعرفة والفكر والوجود الذاتي الحقيقي للإنسان، وكما تنطق به الوقائع في وجه المنصف وغير المنصف. . ـ ليس هو الإسلام ـ عموماً ـ كما هو وجود المسلمين الذي يتسم بما يتسم به من تخلف، ليس أقل مظاهره تمزق في الأرض، وتمزق في الفكر، وتطلع لفتات موائد الآخرين، وانهزام نفسي عند كثير من أولئك الذين يهدمون باسم البناء، وينحرفون تحت عنوان الاستقامة، ويتنكرون للأمة ومقومات وجودها باسم الانتماء إلى الأمة، أولئك الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً.

وإنها لرحلة مضنية كفاؤها كثير من الوعي في الريادة، وكثير من الصبر على تكاليف الطريق، تلك التي نريد من ورائها أن نحول الناس عن هذا الخلط بين الحقيقة والواقع، وأن نرتفع بالجيل إلى حيث النجاة من ظلمة تلك الدويهية النكراء، إلى نور الوضوح في الرؤية، وسلامة الحكم على الإسلام والتاريخ.

ولكن مهما بلغ الضنى مبلغه في هذه الرحلة، فإن الذين يتوجهون شطر بناء التاريخ تهون أمام قصدهم الصعوبات، وطول الطريق يكسبهم قدراً أكبر من التجربة، ويوفر على الأجيال من بعدهم كثيراً من العنت، كما أن كل شيء عند رب هذه الدعوة التي يصنعون تاريخها بحسبان، فهو الذي لا يضيع عنده مثقال ذرة، والناس ـ كل الناس ـ لابدَّ واجدون عنده ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً.

ولقد كان من مصداق هذا الذين نقول، ما شهده كثير من أمصار العالم الإسلامي، من أصوات ترتفع منادية بوجوب العودة إلى الإسلام كما هو في حقيقته التي حولت العرب، ومن بلغته الدعوة من ورائهم: من حال إلى حال ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ ورأينا في الثلاثينيات من هذا القرن ومع كل الظلام المرخي سدوله ما نعتبره واحدة من خوارق هذا الإسلام، ومظهراً من مظاهر رحمة الله بعباده، إذ لا يدعهم هملاً، ويهيئ لهم من يأخذ بأيديهم إلى ساحة الخير، ليخرجهم من الظلمات إلى النور، فيوقظهم من غفلته، ويسلمهم إلى الصراط السوي. . فأصبحت ترى عرضاً صحيحاً لمبادئ الإسلام، ومحاولة جادة لتربية الجيل على حقائق الدين، حيث الجمع بين شطري الدعوة من تبليغ للإسلام، وتربية الشخصية الإسلامية عليه، بحيث يتم إعداد الفرد المسلم لأن يكون لبنة صالحة في مجتمع منشود تتصل أسبابه بأسباب المجتمع الذي صنعه الهدي النبوي. . كل هذا مع الإفادة من معطيات العلم والوسائل التي توصل إليها الباحثون، مما لا يتعارض مع الإسلام في ثقافته وآدابه.

وعلى هذا: كان لابد من متابعة الطريق، ورصد ما يكون صواباً ليدوم الثبات عليه، وما يكون خطأ ليجتنب، خصوصاً والظروف عرضة للتبدل والتغير، والدعوة إلى الله في طرائقها ووسائلها ليست بمنجاة من تقلبات

الطقس! واختلاف المناخ! . ولو كان للحق من حرية القول والحركة ما للباطل في هذا الزمان، إذن لهان الأمر؛ لأنه ما من عاقلٍ يخامره الشك عندئذ في نصرة الحق مهما طال الطريق، ولكن الأمر على العكس تماماً، إذ أن المتغيرات كثيرة وكثيرة، وتجريد المصطلحات من مضموناتها أكثر، ومعركة الإنسان مع أعداء الإنسانية تشتد ضراوة يوماً بعد يوم، ولذلك من الآثار ما له على طبيعة الرحلة في الدعوة إلى الله، فكان لابد من وضع ذلك في الاعتبار، من أجل أن يكون لنا مع الأمانة: الوعيُ، ومع المعرفة: الصدقُ في المواطن، ومع حسن الظن: النباهةُ والبعد عن الغفلة، ومع العمل: قوة اليقين بما عند الله عز وجل في وعده ووعيده، في عطائه ومنعه، وأن الحكيم الخبير سبحانه لا يصدر عنه إلا ما هو عين الحكمة والمصلحة، ونحن بالخير والشر مبتلون، والسعيد السعيد من لزم باب العبودية لله، فأقدم حيث طلب منه الإقدام، وبذل وأعطى من نفسه ووقته ما أعطاه الله، مادام ذلك امتثالاً لأمر الله، وتحقيقاً للعبودية، حيث إن الله تعالى تعبدنا في أن نعتقد، وتعبدنا في أن نعبد، وتعبدنا في أن نجاهد، وأن نكون في كل صغيرة وكبيرة عند حكمه ـ جل وعز ـ، وهدي نبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

وهذا الذي نكتفي عند عرضه والدعوة إليه بالإلماحة التي قد لا نملك أكثر منها، هو الكفيل ـ بعون الله ـ بأن يجعلنا قادرين على صنع الجيل المنوط به تلك المهمة الصعبة، ألا وهي ردم تلك الفجوة بين حقيقة الإسلام وواقع المسلمين. . تلك المهمة التي تقضي على خرافة الخلط بين واقع المسلمين

وحقيقة الإسلام في الوجه الآخر، كيما يُغَلَّ هذا السلاحُ الذي يشهر في وجوهنا، بالقول والكتابة والإعلام، بجَعْل المسلمين في واقعهم المتخلف - على وجه العموم - حجةً على الإسلام، مع أن الذي تقتضيه المعادلة العقلية المنصفة، أن يُتخذ الإسلامُ حجةً على المسلمين فلا يصدر الحكم على الإسلام من زاوية مالت بانحرافهم، ولكن ينظر إليهم من زاوية الإسلام ليقال فيما يكون صواباً: ذاكم هو الصواب، وفيما يكون غير ذلك ما يجب أن يقال فيه.

وإنما يكون الأمر على هذه الشاكلة في الجيل الذي نلمح إليه، والذي نواته الإنسان المسلم، لما أن هذا المسلم - ذكراً كان أو أنثى - لا يني وقد صنعه القرآن، وأدبه الهدي النبوي أن يكون صورة عملية للإسلام عند ممارسة شؤون الحياة في إطار الفرد والجماعة والدولة والأمة؛ لما أنَّ كل حلقة من الحلقات مترابطة تمام الترابط مع أختها، وإذا حصل الانتعاش الإسلامي في أعماق الفرد، وأمكن تطويع السلوك من وراء ذلك، رأينا تكاملاً في تلك الحلقات من هنا وهناك، وعندها نشعر أنا لا نضرب في حديد بارد، أو يعبث بنا الضياع في صحارى من التيه. . ووظيفةُ العقول والإمكانات: أن تضع لتحقيق مناهجها، وأن تسلك إليها أقوم السبل، واضعة في حسبانها عوامل اليسر وعوامل العسر. . والله المستعان.

ولقد أتى علينا حين من الدهر، عمل فيه أعداء الإسلام - وعلى ألسنة بعض المنتمين إلى الأمة وبأقلامهم - على أن نحس من أعماقنا أننا لسنا

بشيء، وأن واحداً من الأمور مهما عظم أو دق من شؤون الحياة، ليس للإسلام فيه نصيب، ورأيت من يعمل معوله ناقلاً كلام المستشرقين مدعياً لنفسه طعناً بإعجاز القرآن، وآخر ينكر عليك ـ فيما يدعي أنه علم وموضوعية ـ أن يكون في الإسلام نظام حكم أو دولة، وثالث يعجبه أن يتفاصح ويترقق لينقذ المرأة ـ حسب زعمه ـ من العبودية ويخرجها إلى الحرية!! كل ذلك والإسلام هو المستهدف، ولم تكن العربية بمنجاة من هذه الحرب (اليهودية) إن صح هذا التعبير، لأن العربية ـ صانها الله من عبث الببغاوات والأقزام ـ هي بيان الإسلام في كتاب الله وسنة نبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ وثروة هذه الأمة في جميع ميادين الفكر والبناء الحضاري، فاستهدافها استهداف للإسلام بلا ريب.

ولست الآن بسبيل الحوار أو الرد، ولكن الذي أعنيه ما ينبغي للرواد أن يكون واضحاً كل الوضوح في تصورهم لأبعاد الغاية المرتقبة، والوسيلة أو الوسائل إليها، من أجل أن توظف كل الطاقات في هذا الميدان الذي لا اختيار لنا ـ بوصفنا مسلمين ـ في أن نعمل فيه أو لا نعمل، فالدعوة إلى الله واجب ومسؤولية، وإنها القلب الذي يمد الأمة بالحياة، ويضمن لها ـ بعون الله ـ أوبة صادقة واعية تعيد إليها ما انتقص من وجودها الحقيقي بمختلف أنواعه ومظاهره. ولقد يكون من تدعوه وتبلغه أقدر منك على فقه الدعوة ونشرها، وهو نفسه قد يبلِّغ من هو أكثر منه فقهاً وقدرة على العطاء. والفقه هنا يحمل مدلول الفهم لدين الله، وأنه عقيدة وشريعة وسلوك وجهاد.

ولقد كان عليه الصلاة والسلام يتخطى أبعاد الزمن ـ وهو النبي المرسل ـ عندما قال: [**نضر الله امرءاً سمع مقالتي فوعاها فأداها كما سمعها، فرب مبلَّغ أوعى من سامع**]. وفي رواية [**فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه**]. أرأيت إلى واحدة من دلائل النبوة؟ ما أعظمها وأعظم إشراقها! «فرب مبلغ أوعى من سامع» بلغ أنت وادْع إلى الله بما لديك من وسيلة، وليكن ذلك على بصيرة، ولا تدري أين يكون الخير، وفي أي قلب تحط الهداية رحالها، لتتابع الرحلة من جديد.

وإذا كان الإسلام ـ والحمد لله ـ: هو في ذاته كما أوحى الله به إلى نبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ، يحمل عناصر بقائه واستمراره، وكان الإنسان قد فطر على التوحيد: فالدعوة إذاً ـ على كثرة المعوقات والعقبات ـ ليست عملاً سلبياً كما يحاول أن يوهمنا القاعدون، ولكنها عمل إيجابي تقتضيه طبيعة المسؤولية في الإسلام، والشعور الصادق بأنها واجب لا وظيفة بمرتب، كما أنها تتناول بحقها من الوجوب كل قادر عليها.. كل هذا في إطار التبليغ عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والإنسان ذو نسب صحيح بالفطرة إلى هذه الدعوة إذا لم يهوِّده المهوِّدون أو ينصِّره المنصِّرون أو يمجِّسه المجِّسون. ومدلولات ذلك كله لا تخفى.

فإذا أرادت الأمة أن تجد نفسها من جديد، وأن تكون الأحداث التي تنوشها على كثرة ألوانها: مهماز حركة ومنطلق تغيير، فما عليها إلا أن تعود إلى ربط أسبابها بأسباب هذا الإسلام، الأمر الذي يتمثل بالاعتصام بحبل الله ضمن خطة مرسومة ونهج للدعوة مستقيم، واضعة في الحسبان

كل المتغيرات في رصد واع سليم لكل ما هو سلبي وكل ما هو إيجابي، وبهذه المقاييس من هم أعداء الأمة؟ ومن هم أبناؤها سواء أكان على صعيد الفكر والمصطلحات، أم على صعيد العمل وحركة الوقائع في وطننا الكبير؟

والله الذي تولى هذه الأمة في الماضي، وجعل منها خير أمة أخرجت للناس، هو القادر على أن يتولاها اليوم. . فيشد من أزرها ويخرجها حين ترجع إليه من تيه الحيرة والضياع. . إلى حيث تكون القادرة على أن يكون أمرها لها، وأن تكون كلمتها كلمة الفصل فيما تريد، لا أن تكون في ثروتها المادية، وأرضها وموقعها الاستراتيجي، وطاقتها البشرية، نهباً مقسماً لتجار الألفاظ وأعداء الإنسان، ووسائل إيضاح وأدوات عبث لمن يتلاعبون بمقدرات الشعوب. . نقول ذلك ونلح عليه، ويقوله معنا كل منصف يحمل بين جوانحه لوعة الصدق، وسلامة الانتماء إلى أمته في عقيدتها وتاريخها وحضارتها. . نقول ذلك ونلح عليه بعد أن تعددت التجارب، وثبت بما لا يقبل الشك: أنه لا طريق إلا هذه الطريق. . وكل تحول عنها إلى غيرها نذير شر مستطير، واستمرارية عفنة آثمة تحت مطارق الهلاك.

ألا وإن النسب متصل بين الوسيلة والغاية فيما نريد، والتكامل قائم بين الدعوى والعمل، وبين المعتقد والسلوك. . وحين تنشرح الصدور، ويستيقن العاملون بما عند الله تبارك وتعالى، تنقذ الأمة نفسها من الهلكة وتنقذ الإنسان في دنيا الإنسان. . وكل ذلك كائن ـ بعون الله ـ حين يبدو المسلمون أنموذجاً حياً واقعياً لهذا الإسلام العظيم، وتردم الفجوة المرعبة التي يراها الناقد البصير بين واقع المسلمين وحقيقة الإسلام. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

السيرة .. والعقوق(*)

في شهر ربيع الأول: نذكر مولد سيد العالمين محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ، الذي كان إيذاناً بنعمة سابغة على الناس في دنيا الناس. ونذكر مبعثه الذي كان فجر الأمل للإنسانية، التي طال عليها ليل العماية هنا وهناك. ونذكر هجرته ـ جزاه الله عن الأمة كل خير ـ التي كانت عنوان الخروج بالدعوة من حيز التبليغ إلى حيز التطبيق، حيث قامت الدولة امتداداً للدعوة، واتضحت معالم المجتمع المسلم القدوة، تبنيه في المدينة يد النبوة وتشارك في بنائه سواعد المؤمنين؛ وذلك بعد ثلاثة عشر عاماً في مكة عزّ على التاريخ أن يجد لها نظيراً في وضوح الرؤية، والتزام الحق، والصبر على المصائب، التي ما زادت المؤمنين إلا إيماناً وتسليماً، كما الذهب النضار، يعرض على النار فيخرج أكثر تألقاً ونضارة.

ومن خلال ذلك كله، وفي ظلال الوقائع التي تحكي قصة الهداية والجهاد.. نذكر السيرة العطرة التي كانت وما زالت ولن تزال ـ لأمتنا بخاصة ـ نبراس هدى، ومعالم طريق، وبرهان التزام بالأمانة، وصدق في تحمل التبعات الجسام، ومنهج رشد لا يزيغ عنه إلا من سفه نفسه، وسلطان ما بعده سلطان، حَمَلَ القناعة لمن أراد مقنعاً بأن رسالة الإسلام هي رسالة الحق والصدق، وهي الرسالة التي وجد الإنسان فيها نفسه بعد الضياع،

(*) مجلة حضارة الإسلام: العدد الأول، السنة العشرون، ربيع الآخر ١٣٩٩هـ، شباط ١٩٧٩م.

حينما أخذت بيده ووجهته وجهة الفطرة، حيث التوازن والتكامل، ففطرته وعقله، وأشواقه وقلبه، وغرائزه وميوله، وحاجاته ورغباته، كل ذلك من تلك الرسالة بحسبان؛ فلا تمزق ولا تشتت، ولا تنمية لجانب على حساب جانب آخر. . ناهيك عن الحفاظ على كرامته، والعناية الفائقة بكل ما فيه تحقيق إنسانيته ووجوده، وذلك ما وفر له أن يعمل في صنع التاريخ بثقة وطمأنينة، وأن يدرك حقيقة موقعه في هذا الوجود، وأن يتعامل مع الله خالقه، ومع الآخرين، بل ومع الكون كله، على سلم القيم التي وضعته على الخط الفاعل الباني بإيجابية وفسحة أمل، وكل أولئك في إطار بالغ الدقة على مدرج الأولويات والاهتمامات؛ ففي الدنيا سعادة أي سعادة، وفي الآخرة رضوان من الله وفوز عظيم.

ولقد أكرم الله الإنسانية ـ فيما أكرم ـ حين أوحى إلى نبيه المصطفى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ برسالة الإسلام وجعل سيرته الكريمة ترجماناً ناطقاً لتلك الرسالة، ثم حين حفظ جلت قدرته الكتاب كما أنزله، وحين وفق من أهل السعادة من حفظوا على الأمة سنة نبيها وسيرته.

أما وقد صان الله كتابه عن أي تحريف أو تبديل، وحفظ بجهود أئمة الهدى بيان هذا الكتاب من سنة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وسيرته؛ فإني أعيذ نفسي، وأعيذ أخي القارئ من أن يكون حديثنا مما نذكر في شهر ربيع الأول، حديث المتعة نخرج بها من السآمة إلى شيء من البهجة الموقوتة وكفى، أو حديث الإعجاب العابر أو غير العابر، شأن الناقد الأدبي يغريه ما يعجب!! هكذا. . وينتهي الأمر.

نعم أعيذ نفسي وأعيذ أخي القارئ من أن يكون ذكرنا لسيرة البشير النذير على هذه الشاكلة. لما أن ذلك هو ظاهرة المسخ في النظرة إلى السيرة، وعنوان الجهالة فيما يطلب من وضع الأمور مواضعها، وإنها لجهالة يُسلم إليها ما يخترعه الغافلون وأهل الأهواء من مفهومات، هي صورة عمَّا هم فيه ومقيمون عليه، ليست من عمل السلف الصالح ولا منهجهم في قليل ولا كثير.

وبعيداً عن عاطفة فائرة ثائرة، ما أحسب عاقلاً منصفاً يماري في أن سيرة الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ، وعمرها الميمون ثلاثة وعشرون عاماً: أبرز مرحلة مضيئة في تاريخ البشرية، لما أنها التاريخ الذي ازدان به الزمان في ضوء الرسالة المحمدية؛ وقد أطاع من أطاع، وصبر من صبر، وقاتل من قاتل، واستشهد من استشهد؛ بناءً وعملاً وتثبيتاً لدعائم الحق وسلطانه في الأرض، تحت راية تلك الدعوة التي اقتحمت أسوار الجاهلية، وآذنت بوجود إنساني جديد، وأعلنت ميلاد حضارة تقوم على مفهومات الإسلام وتحملها العربية لغة القرآن.

من أجل ذلك كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فداه أبي وأمي ـ هو الأسوة الحسنة، والقدوة الهادية الخيرة، وما صح من سيرته هو النبراس، والقضية على صعيد ما يطلب من الأمة ـ وهي تدين دين الحق ـ ليست في حدود النافلة والاختيار، ولكنها برهان الإيمان، ودليل الصدق في دعوى التوحيد ومحبة الله ورسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ

﴿اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾. ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

فالذي ابتعثه وقرن الشهادة برسالته، بالشهادة بوحدانيته سبحانه، هو الذي جعل منه الأسوة الحسنة كما هو صريح القرآن، كيف لا. وحياته ـ صلى الله عليه وسلم ـ في أقواله وأفعاله وسلوكه وتصريفه لشؤون الحياة في ضوء ما أنزل عليه، هي الترجمان الناطق العملي لرسالة السماء.

والواقعة المتدبرة عند آية الأسوة تزيد المؤمن يقيناً بهذه الحقائق، لما أن الآية نزلت في عدد من الآيات من سورة الأحزاب وكانت بشأن غزوة الخندق، حيث الصبر والمصابرة، والصدق في المواطن، واستعلاء المؤمنين بإيمانهم، وانكشاف المنافقين حين اشتد البلاء وبلغت القلوب الحناجر.

وإنه لفهم أبله أو متباله، ذاك الذي يقتصر بالتأسي على بعض الجوانب التعبدية أو الأخلاقية، بل هو عام ـ كما هي دلالة الآية في جوها وسياقها ـ يتسق مع طبيعة الرسالة، إذ لا انفصام بين الرسالة والرسول، ومع البنيان العظيم المتكامل الذي قضى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والذين معه ليلهم ونهارهم، حتى أخرجوه إلى حيز الوجود، البنيان الذي قامت على التوحيد قواعده، وارتفع سامقاً بإذن الله، شريعة ونظاماً للحياة، ومنهجاً للسلوك، لم يغادر صغيرة ولا كبيرة في علاقة الإنسان بربه، وعلاقته بالآخرين، وعلاقة الحاكم بالمحكوم، والدولة بغيرها في حالات السلم والحرب.. إلى آخر ما يصور من ركائز المجتمع وعناصر وجوده، وكل ما به تتحقق الغاية من وجود

الإنسان. . أجل لم يغادر صغيرة ولا كبيرة في ذلك كله، إلا وضعها موضعها، وأبرزها ومعها برهانها الواقعي بجانب النص المكتوب، آخذة مكانها الطبيعي على الساحة العملية في تطبيق الشرعة والحكم بما أنزل الله. ومن أجل هذا كانت طاعته ـ صلى الله عليه وسلم ـ من طاعة الله ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾. ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾.

وهل هذه هي النهاية؟؟ إن العقيدة والتاريخ وواقع الأمة وما يجب أن تكون عليه، ليزول ما ران حياتَها من الهوان. . إن كل ذلك يقول: لا. فالأمة بكل فنائها كائنة ما كانت الصفات والملابسات، مدعوة بحكم إيمانها، والموثق الذي قطعته بالتزامها، أن تكون على خطأ التأسي بصنيع رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ في كل جانب من جوانب الحياة، تهتدي بنورها حيث التيه يضرب بكلكله هنا وهناك، وتنقذ نفسها من خطوب تنتقص أرضها ووجودها الذاتي بين أمم الأرض.

ولعل حالات السلم والحرب من أبرز الأمور التي تستدعي ـ على الصعيد العام ـ تبصراً حقيقياً بسيرة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وطريقته في إدارة الأمور ومواجهة الظروف، ليكون حسن التأسي في ضوء جوهر التصرف ومرتكزاته الأساسية، والغاية المتوخاة من السلم أو الحرب. وليس ذلك بحائل دون ما يجوز من اجتهادات تمليها طبيعة ما يجدُّ من وقائع دون عدوان على الأصول، والخطوط العريضة التي رسم أبعادها القرآن وبينتها قولاً وفعلاً سنة الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

هذا. ومن الحلقات ذات الدلالة في السيرة ـ على صعيد السلم والحرب ـ ما كان من أمر رسولنا الكريم مع اليهود، أولئك الذين بدأهم بالإحسان، وقابلوه بالمساءة، وأية مساءة هي!!

فمنذ وطئت قدماه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ أرض المدينة، وسَّع لهم ـ وهو النبي المطاع ـ في الحقوق، وأعطاهم من الفرص ما يمكنهم من الحياة الكريمة الحرة، لو تخلوا عن الكراهية والحقد والكذب على الله وعلى الناس؛ ولكنهم كانوا في سلوكهم وتعاملهم على نقيض ما يمليه الوفاء والحق الذي يزعمون!! لقد ضاقوا ذرعاً بالمجتمع الجديد ينحسر عنه سلطانهم، وساءهم ما تلقى الدعوة من استجابة ورضى، وما يمكِّن لها من سلطان على القلوب والعقول؛ فلم يحجموا ساعة من ليل أو نهار، عن الدسِّ والغدر، والخديعة والمكر. ومفرداتُ الانحراف تطول وتطول.

ولا تنس ممالأتهم للمشركين ـ حتى ظاهروهم على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ودعوة الإسلام.. وكذبوا على ربهم حين قالوا لعبدة الأوثان: أنتم أهدى من الذين آمنوا سبيلاً، لقد جفت في نفوسهم منابع الخير، ولم يرعو عن أن يركبوا أي مركب للأذى يحقق آمالهم الشيطانية الحاقدة.. وأغلقوا بما صنعته أيديهم كل نافذة سلْم بينهم وبين المسلمين.

فلما لم يكن غير القتال ـ وحالهم هي الحال ـ حَكَماً يُحتكم إليه، كانت لرسول الله معهم معارك بني قريظة، وبني النضير، وخيبر.. إلخ. وتوالت الأحداث، حتى أخرجوا من جزيرة العرب.

وفي نظرة تمليها العقيدة عند تحديد المواقف: ينبغي أن نذكر أن الذي فعله اليهود من قلب ظهر المجن لرسول الله، ومقابلة الإحسان بالإساءة حتى وصلوا إلى تدبير الاغتيال في سلسلة من سيئات ما مكروا، إنما كان من دلالته مصداقاً لما دلت عليه آي القرآن مما هو من الثوابت في الكشف عن خلائقهم، وحقيقة نواياهم، وما تنطوي عليهم صدورهم من كل مستقبح مستكره.

ولكم عاثوا فساداً في دنيا هذه الأمة.. فكانت السبئية.. وكان ما كان بعدها، إلى أن وقع التآمر من يهود الدنما على الخلافة، والقضاء عليها، ولا تنام مطارق الأذى والفتنة، فيلفنا البلاء الأسود بكارثة فلسطين.. وتتطور المشكلة حتى تصل إلى صورتها التي تنصدع لها الأكباد، وليس سراً ما تعانيه الأمة من هذا الخطب الجلل على كل صعيد.

ولكن.. أما لهذا الليل من آخر؟؟ إن معادلة عقلية تضع في حسابها ـ بتجرد وموضوعية ـ تكاملَ حلقات التاريخ، وتأثر الحاضر بالماضي، وطبيعة العلاقة بين أمتنا وبين اليهود والبواعث التي حركتهم في الماضي، وعبر التاريخ، وتحركهم في الحاضر، والمسَلَّمات والثوابت التي أوردها القرآن عنهم، وزادنا تصرفهم وسلوكهم يقيناً بهم على يقين.. نقول: هذه العقدة الصماء لا يحلها إلا حسن التأسي برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما صنع، والتبصر في علاقتنا بالمغضوب عليهم من خلال القواعد التي رسمها. فاليهود هم اليهود، لم يكن الزمن المتطاول في الماضي بقادر، ولا

هو اليوم بقادر كذلك على أن يغير أياً من طبائعهم وأخلاقهم، أو يزحزحهم قيد أنملة عما هم فيه من عداء الله والإنسان، خصوصاً لنا نحن المسلمين، وهم يسخرون العلم وما يصلون إليه ويسرقونه من المنجزات الحضارية لما يهدفون إليه من غايات كلها شر وعدوان.

ولقد كان من معجزة القرآن أنه خاطب اليهود المعاصرين للنبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ وكأنهم الذين حرفوا وبدلوا، وكتموا ما أنزل الله، وقتلوا الأنبياء واحتالوا على أحكام الله وشريعته، وكانوا مع موسى ـ عليه السلام ـ على أشد حالات التعنت. أجل خاطبهم، متخطياً قروناً متطاولة من الزمن، ليدل ـ والله أعلم ـ على أن الطينة واحدة، وبؤرة الأذى في النفوس واحدة، وعلى أن الشر المتأصل في أعماق الأعماق واحد؛ فالحاضرون اليوم راضون كلَّ الرضا عما صنعه أجدادهم ـ قبل قرون ـ بالأمس.

أرأيت إلى صنيعهم اليوم! إنهم بعد كل الذي حصل خلال الأعوام التي أربت على الثلاثين، يتبخترون في دنيا الباطل، ويلعبون على حبال العدوان والمكر، ويحاولون أن يملوا دائماً شروط الباغي المعتدي، وكأنهم أصحاب الحق، والوارثون للأرض ومن فيها وما فيها.

وتبرز هنا صورة مرعبة مفزعة هي صورة العقوق.. ولا أعني به عقوق الآباء والأمهات، ولكنه عقوق سيرة المصطفى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ فيما صنع ـ وهو سيد الرحماء ـ يوم حمله هؤلاء الطغاة على ركوب المركب الخشن.

فهل سمعتم أو رأيتم أو علمتم، عقوقاً أشد وأظلم من هذا العقوق، حين نسقط التاريخ من حسابنا، ونولي وجوهنا شطر الذي هو نقيض ما صنع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم؟! الأمر الذي هو الاستسلام كله، والاستخذاء كله!

أكتب هذه الكلمات بعد الذي حصل في «كامب ديفيد»، ولا أدري متى توقع معاهدة الصلح.. ولكن بعيداً عن توقيع هذه المتوقعة، ألم يأخذ الأعداء في هذه المفاوضات ـ وبكثير من التنطع والعناد ـ ما لم يكونوا يحلمون به من قبل، بل ولا حصل في تاريخ الحروب والمفاوضات؟! لقد أعطي الآثم المصرُّ على الاغتصاب والاستيطان.. وما أدراك ما الاستيطان والمستوطنات.. ما لا سند له من قانون دولي، أو عُرْف معمول به في دنيا العلاقات الدولية، لو كان أهلونا مصرحين بالاعتراف!! هذا فضلاً عن المخالفة الصريحة لنصوص القرآن والسنة، والمنطلقات التي يفترض أن ننطلق منها حين نحارب أو نسالم.

ودع عنك تأويلات فارغة ظالمة لقوله تعالى: ﴿**وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ**﴾. فالمعاذ الله أن تكون الآية من هذا الانحراف الظالم في نسب قريب أو بعيد. ولا تسل عن مجافاة هذا الصنيع لمصلحة الأمة، والإساءة إلى التاريخ، والعبث الذي ما بعده عبث إلا أن يكون شراً منه.. حين يعدو الفرد على الشعوب فيضعها الموضع الذي لا يليق.. يقوِّلها ما لم تقل، ويلبسها لبوساً هي في عقولها وقلوبها له منكرة، ولكنها مصادرة

الإنسان، وإبعاد الأمة عن حقيقة الإسلام، لتغيب عن الساحة روح الجهاد، والبذل بلا حدود في سبيل الله.

اللهم إنا نبرأ إليك من هذا العقوق.. فسيرة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمانة في أعناق أبناء هذه الأمة، وهي آكد وآكد في حق من بيدهم مقاليد الأمور على صعيد الفكر والتنفيذ.

ترى أي داهية هذه التي تضيف إلى عدوان اليهود، عدواناً على قيم الأمة وأصالتها، وتهاوناً مبتذلاً بحقوقها، ورضى بما هو بالذلة والصغار أشبه، تحت عناوين حضارية يا لها من عناوين، ولافتات سلمية مخزيةٍ يا لها من لافتات.. الأمر الذي يذكرنا بقول الله تعالى على لسان فرعون فيما زعم لنفسه: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾.

ولله الأمر من قبل ومن بعد، والله من ورائهم محيط، ولاحول ولا قوة إلا بالله.

عالمنا إلى أين..؟ (*)

ترى هل انحصر دور العالم الإسلامي اليوم في أن يتجرع الغصص من هنا وهناك، وأن يتلقى العاتي من الضربات التي تنهال شرقاً وغرباً ذات اليمين وذات اليسار؟ فلا تكاد تلتقط أنفاسك شيئاً من الوقت بين مرحلة ومرحلة من مأساتنا الدامية في فلسطين، حتى تطالعك أخبار ما جرى ويجري على أرض الحبشة من مجازر تزداد شدتها وشراستها يوماً بعد يوم. الأمر الذي كاد ينسيك أيام الطاغية السابق فيها، وحتى تذكر ما كان من تظاهر القوى الآثمة على أرض الصومال ضد الإسلام والمسلمين، وفي مواجهة الحق وأهله، قتلاً للأبرياء، وتشريداً للنساء والأطفال.

ولا تكاد تصل إلى أخبار الفيلبين حتى يروعك هذا الإصرار على أن لا يكون لمن يقول «لا إله إلا الله محمد رسول الله» وجود في تلك البلاد، ويتصدع كبدك لهول الإبادة الجماعية المتعمدة وكتم الأنفاس، وكم الأفواه، ليتحول المسلم الإنسان إلى أداة يعبث بها الطاغية كيف يشاء!! وجاءتك في هذه السلسلة من المآسي مشكلة (بورما) حيث شرد بالطرد والملاحقة ما يزيد على مئتي ألف مسلم إلى بنغلادش، البلد الذي لا يصحو من متاعب الكفاية لأهله وأبنائه، وحملت الأنباء من قريب، أن أكثر من عشرين ألفاً من هؤلاء البورميين المسلمين، أطفالاً ونساء قد لاقوا حتفهم في المخيمات

(*) مجلة حضارة الإسلام: العدد الثاني، السنة العشرون، ربيع الآخر ١٣٩٩هـ، آذار ١٩٧٩م.

التي يبتلعها العراء، مرضاً فتاكاً وجوعاً قاتلاً. . وليست هذه هي النهاية فالمرض لا يعرف السآمة، ولا يرتحل إن لم يعالج، والجوع لا يني يسقط ضحاياه، وأين من يرون أو يسمعون؟!

وهذا لا ينسينا ما يجري على أرض (تشاد) وغيرها مما يصيب الأكثرية المسلمة من حكم الأقلية غير المسلمة بمعاونة النصارى الغربيين، تحت سمع الدنيا وبصرها، لأن الذين يعبثون بخريطة العالم في أرضه وسكانه يريدون ذلك ولا يرضيهم غيره. والذي يجري في جنوب لبنان لا يحتاج إلى مزيد بيان!

وما أقوله لا يعني استقصاء وحصراً، ولكنها مؤشرات على أرض واقع أليم، وآلم منه وأشد، أن ينعدم إحساسنا به، حتى كأنه لا يعنينا، وأن نكون في مواجهة الحوادث جماداً لا ينفعل لمصاب، ولا يتحرك لنكبة، وهذا ما أطمعَ ويُطمعُ فينا الأعداء أكثر وأكثر، خصوصاً عندما تعطى النكبة ـ مع الأسف! ـ عنواناً حضارياً، يصل إلى حد استجداء اليهود الغاصبين، الذين يعطون المتخاذلين درساً جديداً كل يوم، ولكن ﴿**فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ**﴾.

ولست هنا بالمتشائم الذي تقوده المضحكات المبكيات إلى اليأس ـ لا سمح الله ـ؛ لأن المؤمن لا ييأس من روح الله مهما استحرّت الفتنة وأطبق الظلام؛ ولأن لهذه الأمة من ينابيع القوة في عقيدتها وتاريخها، وعدداً من تجاربها عبر هذا التاريخ، ما يحجز عن التشاؤم، ويحمل المؤمن على العمل

جهد الطاقة موقناً قبل هذا وبعده أن الأمر بيد الله، وهو ناصر من نصره بلا ريب، ولكن الذي هو أمنية كل من يحس مرارة الواقع بنبضات قلبه وحرارة إيمانه، أن تصحو الأمة على صوت النذير، وأن تستبدل الدعة والركون.. وكلَّ ما تمليه عقدة الانهزام، بالعزيمة الصادقة، والمواقف التي تقطع ما بينها وبين الميوعة والاستخذاء، كي تتفجر الطاقات الكامنة، وما أكثرها وأوفرها أن لو أتيح لها أن تتخطى السدود والقيود، وكي تتحرك بواعث اليقظة من الأعماق، فينهمر الغيث، ويمد السيل الهادر مده مجدداً، مداً يزيح العقبات، ويملي على التاريخ، ويعيد الأمور إلى نصابها بعزة وإباء.

أكتب هذه الكلمات: وفي العالم الإسلامي جديد يصلني بمعانيها، ذلكم هو المؤشر الذي رسمته بعض الأحداث؛ فدونما إغراق في التفاؤل، تلوح في الأفق - كما يرى المراقبون - تباشير إصلاح الإنحراف وتقويم المعوج.

والمأمول في إطار التوجه الرشيد: أن يأخذ الإنسان على كل الأصعدة وجوده الحقيقي في دينه وثقافته وحريته، لا أن تكون البقرة الحلوب في مزرعة الطغاة، ولا ذلك الرقم الجامد في صندوق المستغلين والجشعين، ناهيك عن تحويل قسط من ثرواته وخيرات بلاده إلى ألد أعدائه اليهود!!

وفي إطار العلاقات الخارجية: لابد من العودة إلى الوضع الطبيعي فيما يجب أن يكون عليه الأمر في مواجهة كل القضايا المصيرية للأمة في وطنها الكبير.. في ظل العقيدة وأخوة الإيمان.. بعيداً عن كل ما يعوق سبيل المجاهدين، وفي مقدمة ذلك: الموقف من أعداء الإنسانية الغاصبين لمسرى

رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، والزاعمين افتراء وبهتاناً أن فلسطين أرضهم؛ لأنهم شعب الله المختار الموعود بالقدس وما حولها، وهو الموقف الذي تمليه العقيدة ويفرضه الإسلام، ويدعو إليه حب الجهاد والاستشهاد، وتُلزم به ـ لو أنصفنا ـ وقائع التاريخ في القديم والحديث. . لكيلا يكون لهم ولا لأعوانهم في بلد من بلاد الإسلام مرتع يستعينون به على إنفاد ما يدور بأذهان المكرة الجزارين من أحلام. ولهذا العالم الإسلامي من موقعه الاستراتيجي، وعقيدته وتاريخه وطاقاته المادية والبشرية، مايجعل لتحركه انعكاساً يرجى أن يكون من ورائه الخير.

هذا: وفي ظل هذا المنعطف؛ هل يحق لنا أن نمني النفس بأن وطننا الكبير عازم على ألاّ يكون دوره تجرع الغصص، وتلقي الضربات، وتلوين مظاهر الحزن والتأوه؟ ما أحسب أن من السهل إعطاء الأحكام الجازمة في هذا الموضوع الخطير، ولكنه الأمل بفضل الله تعالى، وصدق وعده بنصر من ينصره، ثم في الطاقات الكامنة في طبيعة هذا الدين، وقدرته الدائمة على العطاء، تلك القدرة التي تظهر أكثر ما تظهر يوم يسعد أبناء الأمة بمن يقودهم بكلمة الإسلام، وفي الأفق ـ كما أسلفنا ـ تباشير لا ننسى معها خطوة باكستان الأخيرة نحو الحكم بشريعة الله، والعناية بالعربية لغة القرآن، والعمل على صياغة الإنسان المسلم كما يجب أن تكون الصياغة.

يضاف إلى ذلك كله ـ في غير غفلة عن المعوقات ـ أن في عالمنا ـ على رحبه ـ ما لا يستهان به من المخلصين الواعين لدينهم، وللحياة من حولهم، لم تقعد

بهم عن الانطلاقة الجادة عزائمهم، ولكنها شراك منصوبة، وعقبات من الرغبة والرهبة موطأة، وحرب من الشرق والغرب، يتعاون الفرقاء على شحذ أوارها، مهما كان بينهم من اختلاف المصالح، إذ إن القضاء على القيم الإسلامية في النفوس، والحيلولة دون القدرة الإسلامية ودون أن تظهر من جديد: من القضايا المتفق عليها اتفاقاً غير مقدس، ليت شعري متى كان اتفاق الجناة مقدساً؟! وفي كل يوم يبرز من الوقائع ما يعض المسلمَ بنابه، ويلوح في أفق القوم ما يؤكد هذه المسلَّمة التي كان كل ما فيها ضر وبلاء. وما أجدر ذلك أن يكشف بما هو أكثر من الوضوح: عن تفاهة وبله أولئك الذين يطلبون من الجزار - وسكينه تقطر دماً - أن يعاون في إنقاذ الضحية من الموت!

غير أن شيئاً من هذا لا يصح أن يلهينا عن الواجب، ولا أن يعفينا من النقد الذاتي الصارم لأنفسنا، والذي يبدأ من ملاحظة أن أمتنا في طول العالم وعرضه، تعاني - حتى على صعيد بعض ذوي المعرفة - نوعاً من الجهل بحقيقة ما هي عليه، بموقعها الطبيعي من العالم في القديم والحديث وعوامل ذلك، أين تقف الآن؟ وكيف يمكن أن تفيد من الأحداث وتوظفها على طريق التغيير؟ ما هي طبيعة الأرض التي يتحرك عليها المسلم؟ ما هو دور الثقافة في تكوينه ووجوده كما ينبغي أن يكون؟ ما هي مقاييس الانتماء إلى الأمة وعدم الانتماء؟ ما هي القيم التي من خلالها يحكم بالصداقة أو العداوة، بالقرب أو البعد؟ أي شيء هي تلك المثبطات عما يجب أن يكون؟ ما هي حدود الولاء والبراء؟!

ثم، هل من وظيفة المسلم أن يكون واقعه السيئ هو الأصل، ثم تجري محاولة التأويلات الظالمة - بعد ترويض الشعوب - لتطويع الإسلام لهذا الواقع، كما فعل ويفعل من يؤولون قوله تعالى: ﴿**وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ**﴾ بعبث ما بعده عبث؛ لما أنه معارض لسبب النزول، ولدلالة كل آيات الجهاد الحاسمة في سورة التوبة التي نزلت بعد هذه الآية. أو ما صنع قبلهم من تأولوا قوله عز وجل: ﴿**إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا**..﴾ الآية، بعتو مستكره ما بعده عتو، حيث قلبوا الآية وطبقوها على كل أولئك الذين يبتغون لأمتهم الخير والفلاح.

خطوط عامة لا أريد من ورائها توجهاً إلى التشاؤم، ولا حصر كل مظاهر الداء، ولكنها الإلماحة إلى ما يجب من الأوبة الصادقة إلى الله، ومن النقد الذاتي، الذي يبدأ من تصحيح المسار، ووعي الواقع، وإحكام التناسق بين واقع الأمة وبين الإسلام الذي ننتمي إليه، لكي تنجو من كابوس الانفصام بين العقيدة والسلوك في ممارسة شؤون الحياة، وذلك دون تجاهل لمعطيات العصر، والوسائل التي يملكها أعداء الإسلام في ظل المنهجية والعلم، ودون إغفال لظاهرة التأثر التي يصاب بها أولئك الذين لا يملكون رصيداً من المعرفة بحقيقة الإسلام ولا خالطت ثقافته بأبعادها وعمقها فكرهم. ذلك أن أعداء الإسلام - بما يملكون من وسائل على صعيد التعليم والإعلام وعلم نفس الشعوب - لا ينفكون يلحون ويلحون على الأفكار التي يريدون، حتى يتأثر بها أولئك الذين حرموا مناعة تدفع عدوان المرض، ورصيداً من أصالة الفكر يكشف زيف الوافد الدخيل.

وفي هذا ما يذكر بالتبعة على هذه الساحة، وفداحة المصاب بمن يقطعون الطريق دون من يريدون القيام بواجب تلك التبعة، والمعاذ الله من شر كل ذي شر.

ألا أن من سنن الله في هذا الكون: أن تكون المصائب والنكبات، مفاتيح يقظة، وعوامل إثارة الكوامن وتفجير الطاقات. والتحديات التي واجهتها أمتنا، وتواجهها اليوم جديرة أن تنقلها - إن شاء الله - النقلة المنشودة، فتنطلق تلك القدرات الحبيسة من عُقُلها، وينكفئ الأعداء إلى حجورهم، ويرد كيدهم إلى نحورهم، حيث يأخذ الحق بمده وعنفوانه، كل أولئك الذين يقومون على حراسة الباطل وإلباسه لبوس الحق، وترتفع الراية التي ما كان لها أن تسقط وفي الأمة القلب المؤمن، والعقل المستنير، والساعد القوي.

ولقد يأخذك العجب - وما هو بعجب - إذا علمت أن أعداء هذه الأمة، وهم يدققون في واقعها الذي تعاني منه ما تعاني: يرصدون حجم تحركاتها ويقظتها، ومقدار قربها أو بعدها عن حقيقة الإسلام في كل ما هو تحرك، وفي كل ما هو يقظة أو بوادرها، ويحسبون لكل حركة بل لكل كلمة حسابها، وتجدهم يدعون على لسان أجهزتهم، وفي صحفهم ومجلاتهم وكتبهم إلى التنبه والحذر من كل ما يتوهمون، أو يقدرون أنه بادرة صحوة جديدة، ما كان للمسلمين في ظنهم أن يبلغوها. لقد قالوا كثيراً يوم وقع ما وقع بين تركيا وقبرص من الحرب التي ما زالت آثارها - على صغر حجمها -

تطغى على كثير من التصرفات، ويتحدثون اليوم بمرارة عن كل معارضة في طريق ما تهوى إسرائيل التي تخشى يوماً يعمل فيه الإيمان عمله، وتعلن كلمة الجهاد إعلانها. ولا تني بعض الصحف في الشرق والغرب تتحدث بمرارة وأسى عن خطوة باكستان في تطبيق الشريعة على أرضها، وما لذلك من دلائل ومؤشرات.

وأحداث بعض البلاد: فيها ما يشغل بال أكثر أصحاب المصالح، وذوي الأهداف المعادية من هنا وهناك!! من الذين يضعون نصب أعينهم تاريخ الإسلام الماضي ومقومات وجوده، وما كان لهذه الأمة من قوة، ومكانة عالمية في ظل عقيدة الإسلام وشريعته، حتى شرعت بعض الصحف الأجنبية في الكتابة عن مبادئ الشيعة والسنة، محاولة بخبث موضوعي!! أن تنفذ إلى شيء يراد، نفاذ الصديق اللدود!!

وهكذا دواليك، في كل يوم كلام، ومع كل مناسبة تنبيه ودعوة إلى أن يكون الجميع في الشرق والغرب على حذر من ساحة الوعي الإسلامي واتخاذ الحيطة، لكيلا تتسع تلك الساحة فيكون من وراء ذلك ما لا يحمدون.

أما ما يصاب به المسلمون: فليس من حسابهم في شيء، بل هو أمر طبيعي يجب أن يكون وإلا خرج المارد الجبار من القمقم ـ كما يقولون ـ وهم ـ بجانب إفلاس الحضارة المادية الراهنة ـ يعلمون عن طاقات الإسلام الكامنة في سلامة أصوله، واتساقه مع الفطرة، وعدم إهماله لأيّ بُعد في الإنسان، ثم ـ وهو الأهم ـ حقيقة الارتباط بين العقيدة والجهاد وحب الاستشهاد..

يعلمون عن ذلك ما يعلمون عن واقع الأمة، ومن أجل ذلك يرصدون الخطأ، ويعملون على غرس العراقيل، وكثيراً ما يسخِّرون من يحلو لهم أن يسخروه ليكون ـ بقابليته لهذا التسخير ـ: أداة التنفيذ في هذا المضمار.

وإذا كانت حقيقة الأمر كذلك، ونحن على ما نحن عليه في كل الجوانب المضيء منها وغير المضيء، فأجدر بالبصائر أن تتفتح فيستبين الطريق، وبالعزائم أن تتحرك بإيمان وأريحية فتقضي على الوهن.. كيما تكون المصائب على شدتها، والأحداث على هولها، معاول تهدم الباطل، وتزيح الركام، وتعلي كلمة الحق إن شاء الله.

ويومئذ لا تجدنا مهددين في عقر دارنا ممن حلت عليهم لعنة الله وحاق بهم غضبه، كما لا تجد المسلمين في كثير من بقاع الأرض كالأيتام على مأدبة اللئام. بل تجدهم سادة أرضهم وديارهم يقفون على اليابسة في صدق الانتماء إلى أمة التوحيد والجهاد، وفي عزمهم ألاّ يعودوا إلى ما كسبت أيديهم، مما أسهم في وجود ذلك المعترك من البلاء.

وليكن نصب الأعين وعلى كل المستويات، ما جاء عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين امتدت يده إلى ساحة البناء، وصياغة المسلم القادر ـ في مواجهة كل التحديات ـ على صياغة الحياة وفق المنهج الرباني، من قوله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ: [**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير..**] ألا أنها الهداية التي تسلم للعزة والنصر، تلك التي رسمت طريقها، وذللت مسالكها وشعابها عزيمة هذا الرسول الكريم،

الذي ارتفع بالأمة إلى مستوى القيادة في العالمين، الأمر الذي يحمل على المزيد من الإصرار على الاستضاءة بنورها، والاهتداء بهداها، وتعميق الصلة على كل صعيد، بكل ما هو من منهجها بسبيل. . إيماناً وفكراً، وعملاً متوائماً مع الإيمان والفكر، وصبراً على كل ما يجمل بالرجال أن يصبروا عليه، وأنى لأشباه الرجال أن يكونوا من صانعي التاريخ.

وعلى الله قصد السبيل، وربك يخلق ما يشاء ويختار، وصلى الله وسلم على سيد الهداة وإمام النبيين، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وصحابته الأبرار المجاهدين ومن سار على هدي النبوة الأغر، وصبر على لأواء الطريق إلى يوم الدين.

قراءة في تفسير (فتح القدير) للشوكاني[1]*

«فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير». من أبرز ما عرف من كتب التفسير في القرن الثالث عشر للهجرة. وهذا الاسم الذي سماه به مصنفه ـ رحمه الله ـ يدل على أن الغرض الذي توخاه من تأليفه، وعلى المنهج الذي أراد أن يلزم نفسه به، إنما هو الجمع ـ في مواجهة النصوص القرآنية ـ بين الرواية والدراية، أو بين التفسير بالمأثور، والتفسير بالرأي المقبول كما هو اصطلاح أكثرهم.

ولقد كان من مصادر الكتاب عند المؤلف ـ بجانب كتب الآثار ـ «إعراب القرآن» لأبي جعفر النحاس المتوفى ٣٣٧هـ، و«أحكام القرآن» للكيا الهراسي الطبري المتوفى ٥٠٤هـ، و«المحرر الوجيز» لابن عطية المتوفى ٥٤٦هـ، و«الجامع لأحكام القرآن» لأبي عبدالله القرطبي المتوفى ٦٧١هـ. ويكاد قدر كبير من هذا التفسير الجامع يكون منثوراً في «فتح القدير». ناهيك عما كتب الزجاج وغيره من علماء العربية والتفسير خصوصاً ما يتعلق بالجانب الإعرابي عند العمل على تبيان المعنى المراد.

---

(١) هو محمد علي بن محمد بن عبدالله الشوكاني ثم الصنعاني، ولد ـ حسبما وجد بخطه ـ نهار الاثنين في الثامن والعشرين من ذي القعدة ١١٧٣ في بلدة (شوكان)، وهي قرية من قرى السحامية إحدى قبائل خولان، بينها وبين صنعاء دون مسافة يوم. نشأ ـ رحمه الله ـ نشأة علمية جادة، وتفقه على مذهب الإمام زيد ـ رضي الله عنه ـ، وأخذ عن الكثير من العلماء، ثم أخذ عنه تلامذة كثيرون. له عدد من المؤلفات النافعة في شتى العلوم الإسلامية؛ منها هذا الكتاب الذي نحن بصدده وهو «فتح القدير» في التفسير، و«نيل الأوطار» شرح «منتقى الأخبار» للمجد ابن تيمية في الحديث، و«إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول» في أصول الفقه. توفي ـ أجزل الله مثوبته ـ في صنعاء ليلة الأربعاء في السابع والعشرين من شهر جمادى الآخرة ١٢٥٠هـ.

* مجلة حضارة الإسلام، العدد الثاني، السنة العشرون، ربيع الأول ١٣٩٩هـ، آذار ١٩٧٩م. نشرت في ١٩٧٨م، ١٣٩٨هـ.

وهكذا يتجلى لنا أمران مهمان في الكتاب:

أولهما: الجمع بين الرواية والدراية في التفسير.

الثاني: الإكثار من النقل عمن سبق من أئمة هذا العلم.

ولقد أخذ المؤلف ـ رحمه الله ـ على نفسه ـ كما هو واضح في مقدمة كتابه ـ أن يكون على الجادة في تحري المقبول من الآثار، وأن يحرر الأقوال، ويدلي برأيه عندما يفسح المجال للتفسير بالرأي، ذلك لأن المفسرين ـ كما يقول ـ تفرقوا فريقين وسلكوا طريقين:

الفريق الأول: اقتصروا في تفاسيرهم على مجرد الرواية، وقنعوا برفع هذه الراية.

والفريق الآخر: جردوا أنظارهم إلى ما تقتضيه اللغة العربية، وما تفيده العلوم الآلية، ولم يرفعوا إلى الرواية رأساً، وإن جاءوا بها لم يصححوا لها أساساً. . وكان ـ رحمه الله ـ يتكلم بلغة الواثق من صنيعه حين اختتم هذه المقدمة بقوله: «فهذا التفسير وإن كبر حجمه، فقد كثر علمه، واشتمل على ما في كتب التفاسير من بدائع الفوائد، مع زوائد فوائد، وقواعد شوارد، فإن أحببت أن تعتبر صحة هذا، فهذه كتب التفسير على ظهر البسيطة انظر إلى تفاسير المعتمدين على الرواية، ثم ارجع إلى تفسير المعتمدين على الدراية، ثم انظر إلى هذا التفسير بعد النظرين، فعند ذلك يسفر الصبح لذي عينين، ويتبين لك أن هذا الكتاب هو لب الألباب، وعجب العجاب، وذخيرة الطلاب، ونهاية مأرب الألباب»[1].

(١) انظر: المقدمة من الجزء الأول.

وما من ريب في أن الشوكاني ـ أجزل الله مثوبته ـ قد أجاد وأفاد في هذا التفسير الذي بلغ خمسة مجلدات كبار، فقد جمع فعلاً بين الرواية والدراية، أي بين التفسير بالمأثور والتفسير بالرأي المقبول ـ كما أسلفنا ـ حيث ينقل أقوال المتقدمين، ثم يدلي برأيه عندما تسنح الفرصة ويطالعنا بالتحقيقات الرائعة في كثير من المسائل. واختار لنفسه تيسيراً للقارئ أن يفسر السورة أو المقطع من الآيات، ثم يتبع ذلك بالآثار المتعلقة بما فسر وبين.

ولك أن تقول: إن تفسير «فتح القدير» عدة تفاسير في كتاب واحد وانتفع وينتفع به خلق كثير، وإن كانت كثرة نقل الآراء، تستدعي من القارئ أن يكون أكثر دقة عندما يريد استخلاص الرأي المختار أو القول الذي جنح إليه المؤلف بعد تلك الرحلة مع أقوال المتقدمين، سواء كان ذلك في بيان الآية عموماً، أو في اللغة، أو اختلاف القراءة واستنباط الحكم وما تدل عليه الآية.. وهلم جرا.

والحق أن الذي يخالط منهج المؤلف في الكتاب وطريقته في نقل الآراء واستخلاص ما يريده بعد ذلك: يفيد كثيراً، ويخرج بقدر كبير من المعرفة بما يقفه المؤلف عليه من ساحة متسعة في النقل والبحث، يساعد عليها ما أشرنا إليه من تأخير المرويات إلى ما بعد الكلام في الآية أو الآيات. ولست بسبيل التفصيل في الكلام عن المنهج والطريقة، فذلك أمر له موطن آخر، ولكنني بسبيل بعض الإشارات السريعة التي لا يتسع لغيرها المقام، وليس ذلك بغاض من قدر هذا الإمام الكبير أو كتابه النافع «فتح القدير».

أ ـ ما أخذه المؤلف على نفسه من التزام المقبول من الرواية قد وفى به إلى حد بعيد، ولكن لم يخل الأمر من ثغرات أردنا أن ننبه إلى واحدة منها، فلعل من خدمة الكتاب والحرص على الإفادة منه، العمل على الكشف عما يكون هناك من ضعيف أو أشد ضعفاً ونسأل الله العون والتيسير. جاء في أول الجزء الرابع عند بدء كلام المصنف في تفسير سورة النور: أخرج الحاكم وابن مردويه والبيهقي في «الشعب» عن عائشة مرفوعاً: [**لا تنزلوهن الغرف ولا تعلموهن الكتاب ـ يعني النساء ـ وعلموهن الغزل وسورة النور**].

هكذا أورد الرواية دون بحث أو تمحيص، مع طول معاناته للحديث وتصانيفه فيه، والحاكم في «المستدرك»: (٢/ ٣٩٦) قد أورد هذا الحديث وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وذلك في تفسير «زاد المسير» عند تفسير سورة النور أيضاً. غير أن الإمام الذهبي ـ جزاه الله كل خير ـ تعقب الحاكم فقال عند قوله: هذا صحيح الإسناد ولم يخرجاه: قلت: بل موضوع، وآفته عبدالوهاب بن الضحاك، قال أبو حاتم: كذاب، ولم يخرجاه. وهذا الخبر رواه أيضاً ابن حبان في صحيحه، وفي سنده محمد بن إبراهيم الشامي منكر الحديث ومن الوضاعين.

وكان ذكر ابن الجوزي للحديث في كتابه «زاد المسير» سهواً، لأنه ذكره في «العلل المتناهية في الأحاديث الواهية» وقال: لا يصح. محمد بن إبراهيم الشامي كان يضع الحديث.

هذا وقد حقق العلامة المحدث شمس الحق عبدالعظيم أبادي في رسالته التي أسماها «عقود الجمان في جواز تعليم الكتابة للنسوان» أن أحاديث

النهي عن تعليم الكتابة للنسوان كلها من الأباطيل والموضوعات. قال رحمه الله: «ولم يصحح العلماء واحداً منها ما عدا الحاكم أبا عبدالله، وتساهله في التصحيح معروف، وتصحيحه متعقب عليه، ولا يؤخذ كلامه في التصحيح إلا إذا وافقه الآخرون في تصحيحه»[1].

إن القضية التي تعرض لها هذه الرواية الموضوعة: قضية كبرى تتعلق بتعليم النساء الكتابة والمكان الذي نسكنهن فيه، الأمر الذي يترتب عليه ما يترتب من الآثار إن سلباً أو إيجاباً، خصوصاً إذا ذكرنا أن خطاب التكليف في الإسلام هو للرجل وللمرأة على السواء، أما اختلاف الرجل عن المرأة في بعض الأحكام، واختصاصه دونها ببعض الأمور والمهام: فتلك مسألة أخرى اقتضتها طبيعة التكوين كما أرادها الخالق الحكيم، والرسالة المنوطة بكل واحد منهما. ونحن دائماً من وراء النصوص، ومعاذ الله أن تأتي الشريعة بحكم يتخالف مع المصلحة الحقيقية للإنسان كما فطره مولاه، فخالق الإنسان أعلم بما يصلحه ويسعده، من أجل ذلك كنا نتمنى لو أن الإمام الشوكاني محَّص الرواية ولم يثبتها على عواهنها، لكيلا ينسب إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما لم يقل، وتستنبط مما نسب إليه هذه الأحكام، خصوصاً وأن له كتاباً مشهوراً في الأحاديث الموضوعة، هو: «الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة».

ومن عجب أن القرطبي ـ وهو من يكثر الشوكاني النقل عنه كما أسلفنا ـ قد أورد الرواية على أنها من كلام عائشة، ولم يقل ذلك الشوكاني.

---

(١) انظر (زاد المسير) لابن الجوزي: (٦/ ٣-٤) مع التعليق.

ب ـ وفي أمر النقل عن السابقين من رجال التفسير، يفترض أن ينقل كلام المنقول عن واحد منهم برمته دون بتر أو اختصار مخل، وقد سلك الشيخ ـ رحمه الله ـ هذا المسلك فكان أميناً فيما ينقل عن الآخرين ولكن لسبب ما، قد يكون نسياناً أو غفلة من طالب كلف بمهمة الأخذ من كتاب فلم يأخذ النص بأكمله.. أو غير لك، أقول: لسبب ما وقع (فتح القدير)[1] عند تفسير سورة الأحزاب بنقل مبتور عن القرطبي في كتابه (الجامع لاحكام القرآن). وكان ذلك عند الكلام على الآيات المتعلقة بقصة زيد وزينب ـ رضي الله عنهما ـ، في معرض قوله تعالى: ﴿**وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ**﴾[2].

قال الشوكاني: (قال القرطبي: وقد اختلف في تأويل هذه الآية، فذهب قتاده وابن زيد وجماعة من المفسرين، منهم ابن جرير الطبري وغيره إلى أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقع منه استحسان لزينب بنت جحش وهي في عصمة زيد، وكان حريصاً على أن يطلقها زيد فيتزوجها هو، ثم إن زيداً لما أخبره بأنه يريد فراقها، ويشكو منها غلظة قول وعصيان أمر، وأذى باللسان، وتعظماً بالشرف قال له: [**اتق الله فيما تقول عنها وامسك عليك زوجك**] وهو يخفي الحرص على طلاق زيد إياها، وهذا الذي كان يخفي في نفسه، ولكنه لزم ما يجب من الأمر بالمعروف)[3].

---

(١) جـ ٤، ص٢٨٤.

(٢) الآية: ٣٧، من سورة الأحزاب.

(٣) انظر (الجامع لأحكام القرآن)، للقرطبي: (١٤/ ١٨٩).

وفي أعقاب هذا النص عن القرطبي قال صاحب (فتح القدير) في قوله تعالى: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾: (وهو نكاحها إن طلقها زيد، وقيل: حبها ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ﴾ أي تستحييهم أو تخاف من تعييرهم بأن يقولوا: أمر مولاه بطلاق أمرأته ثم تزوجه ﴿وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾ في كل حال وتخاف منه وتستحييه، والواو للحال، أي تخفي في نفسك ذلك الأمر مخافة من الناس)[1].

وأنت ترى أن كلامه هنا يسير في ظل ما روى نقلاً عن القرطبي. إذا عرفت ذلك كان لا بد من التنبيه على أن ما يلاحظ على هذا الموضوع برمته بدءاً من نقل الشوكاني حتى ختام كلامه هو في تفسير الآية: ما يلي:

١ـ يعجب الناظر المتأمل في هذا الكلام للشوكاني كيف نقل هذه الرواية التالفة عن القرطبي دون تمحيص مع أنه ـ كما أشرنا من قبل ـ من أهل المعاناة للحديث وعلومه، وتخريجه لأحاديث (منتقى الأخبار) للمجد بن تيمية وجمعه لطرق الحديث ورواياته المختلفة ـ في كتابه (نيل الأوطار) الذي شرح فيه المنتقى ـ أمر معروف، وهو مذكور ومشهور، وله كتاب في الموضوعات، ـ كما جرت الإشارة ـ أسماه «الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة».

ثم إنه لا يخفى على الإمام الشوكاني وأمثاله من كبار العلماء أن رواية الطبري لا تعني الصحة، وكم في تفسيره «جامع البيان» ـ وهو الكتاب الفذ

(١) انظر (فتح القدير): (٤/ ٢٨٤).

في بابه، والذي رسم فيه أبو جعفر معالم الطريق في هذا العلم العظيم لمن جاء بعده من المصنفين ـ من روايات ضعيفات وواهيات، أو أكثر من واهيات.

وليس في ذلك غض من مكانة الطبري وإمامته ـ رحمه الله ـ ذلك لأنه:

أولاً ـ ما كان يأتي بهده الروايات لتحكم على الآية وتحدد تأويلها، وإنما يأتي بها للاستئناس، شأنها شأن الشاهد من كلام العرب للمعنى المراد.

وثانياً ـ كان في صنيعه منتهى الأمانة على قاعدة (من أسند لك فقد أحالك) ونحن نقدر ذلك حقَّ قدره إذا علمنا أنه في عصر الطبري ـ رحمه الله، وقد توفي في ٣١٠ للهجرة ـ كانت لنقد الرواية والحكم عليها ـ قبولاً ورداً ـ: راية مرفوعة، والحقبة الزمنية يومذاك حقبة ازدهار في هذا العلم وأمثاله من العلوم التي تخدم حديث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وما وراء ذلك من آثار، فهنالك قدرة على التخريج والتثبت من صحة الرواية أو عدمها، من خلال السند الذي ذكره الراوي؛ فالطبري خرج من العهدة بذكر السند. وهكذا كان حرياً بالشوكاني ـ رحمه الله ـ وأجزل مثوبته ألاّ يحمل إلينا هذه الرواية التالفة ويثبتها مفسراً لكتاب الله دون تمحيص وتحقيق، كيف وإنها رواية كشف العلماء المحققون شدة ضعفها.. فهي تالفة حتى إن الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ أعرض عن ذكرها وذكر أمثالها في هذا المقام لشدة ضعفها.. لقد رأى ابن كثير ألاّ يسود الورق بذكرها، لأنها تالفة سنداً ومتناً[1].

(١) انظر (تفسير القرآن العظيم). (٣/ ٤٩٠ - ٤٩١).

٣ ـ وهذا كله كائن مع افتراض أن كلام القرطبي قد انتهى حقاً عند القدر الذي نقله (فتح القدير) غير أن الحقيقة غير ذلك، فالنقل عن القرطبي مبتور، والقارئ لكلامه كما ورد في كتابه يخرج بالفكرة المضادة لما أثبت الشوكاني. فقد ذكر القرطبي ما نقله الشوكاني عنه، ثم تابع الكلام فيه وأورد ما روي عن علي بن الحسين من: «أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان قد أوحى الله تعالى إليه أن زيداً يطلق زينب، وأنه يتزوجها بتزويج الله إياها، فلما تشكى زيد للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ خلق زينب، وأنها لا تطيعه، وأعلمه أنه يريد طلاقها، قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على جهة الأدب والوصية: [**اتق الله في قولك، وأَمسك عليك زوجك**] وهو يعلم أنه سيفارقها، ويتزوجها، وهذا هو الذي أخفى في نفسه، ولم يرد أن يأمره بالطلاق، لما علم أنه سيتزوجها، وخشي رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يلحقه قول من الناس في أن يتزوج زينب بعد زيد، وهو مولاه، وقد أمره بطلاقها، فعاتبه الله تعالى على هذا القدر من أنه خشي الناس في شيء قد أباحه الله له، بأن قال: [**أمسك**] مع علمه بأنه يطلِّق. وأعلمه أن الله أحق بالخشية، أي: في كل حال»[1].

وأنت تجد في كلامه تأكيده الشديد لكون الذي أخفى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في نفسه، إنما هو علمه أن الله مزوجه زينب وليس ـ كما تقول الرواية التالفة ـ حبها أو الرغبة في أن يطلقها زيد ليتزوجها هو. وفعلاً

(١) انظر (الجامع لأحكام القرآن) للقرطبي: (١٤/ ١٨٩-١٩٠).

كان الذي أبداه الله هو تزويج الله رسوله بزينب، وفي ذلك يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً﴾.

ولعل مما يؤكد ضرورة تحرير المسألة بالنسبة للقرطبي وتصحيح ما نسب إليه، أنه ـ رحمه الله ـ بعد أن أورد رواية علي بن الحسين ـ رضي الله عنهما ـ، وأثبت أن الذي أخفاه رسول الله في نفسه: علمُه بأن الله مزوجه بها بعد أن يطلقها زيد.. أيَّد وجهته هذه بما ذهب إليه أهل التحقيق من العلماء، ذلكم قوله بعد ذلك: «قال علماؤنا ـ رحمة الله عليهم ـ: وهذا القول أحسن ما قيل في تأويل هذه الآية، وهو الذي عليه أهل التحقيق من المفسرين والعلماء الراسخين، كالزهري والقاضي بكر بن العلاء القشيري، والقاضي أبي بكر بن العربي[1] وغيرهم».

وبعد أن أوضح معنى ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ﴾ قال ـ رحمه الله ـ: «فأما ما روي أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ هوي زينب امرأة زيد ـ وربما أطلق بعضهم لفظ عشق ـ فهذا إنما يصدر عن جاهل بعصمة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ

(١) مما قاله أبو بكر بن العربي في كتابه: (أحكام القرآن: ٣/ ١٥٣١): «فأما قولهم: إن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ رآها فوقعت في قلبه فباطل، فإنه كان معها في كل وقت وموضع، ولم يكن حينئذ حجاب، فكيف تنشأ معه وينشأ معها ويلحظها في كل ساعة، ولا تقع في قلبه إلا إذا كان لها زوج، وقد وهبته نفسها وكرهت غيره، فلم تخطر بباله، فكيف يتجدد له هوى لم يكن. حاشا لذلك القلب المطهر من هذه العلاقة الفاسدة، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾. والنساء أفتن الزهرات وأنشر الرياحين، فيخالف هذا في المطلقات، فكيف في المنكوحات المحبوسات». وانظر تفصيلاً أوفى هناك.

عن مثل هذا، أو يستخف بحرمته. قال الترمذي الحكيم في «نوادر الأصول»: وأسند إلى علي بن الحسين قوله: فعلي بن الحسين جاء بهذا من خزانة العلم جوهراً من الجواهر ودراً من الدرر، إنه إنما عتب الله عليه في أنه قد أعلمه أن ستكون هذه من أزواجك، فكيف قال بعد ذلك لزيد: [**أمسك عليك زوجك**] وأخذتك خشية الناس أن يقولوا: تزوج امرأة ابنه. والله أحق أن تخشاه[1].

ولقد آثرت أن أنقل كلام القرطبي برمته ـ على ما قد يرى فيه بعض القراء من طول ـ حرصاً على وضوح الأمر في هذه القضية، ودفعاً لأي التباس محتمل، خصوصاً أن الأمر يتعلق بعصمة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من حيث الموضوع، ويتعلق بقبول الرواية أو عدم قبولها من ناحيتي السند والمتن، ويتعلق أخيراً بتحديد موقف صاحب «الجامع لأحكام القرآن»، فمن خلال دراستي للموضوع، ومعاناتي لتدريس مادة التفسير في الجامعة: رأيت أن كل من يقرأ ما جاء في «فتح القدير» نقلاً عن القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» تتولد عنده القناعة الكاملة بأن ما ذهب إليه القرطبي هو الرأي المرتبط بتلك الرواية التالفة، ولكن بعد الاطلاع على كلامه كما هو وارد في كتابه، نجد القضية ـ كما أوضحنا من قريب ـ على العكس تماماً، وللقارئ عذره، فليس كل قارئ يفكر في العودة إلى المصدر المنقول عنه حتى لو توافر له ذلك.

(١) (الجامع لأحكام القرآن): (١٤/ ١٩٠-١٩١).

مرة أخرى: جزى الله الشيخ الشوكاني كل خير، وأعلى مقامه في الآخرين، وأكرم مثواه بما بذل في خدمة الكتاب والسنة.

ويرحم الله الإمام مالك بن أنس في قولته المأثور: كل امرئ يؤخذ من قوله ويردُّ إلا صاحبَ هذا القبر - يعني رسول الله - عليه الصلاة والسلام -. والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

obeikandl.com